الميراث الثقافي القديم بين العرب والصين

(كما عكستها رحلات ابن بطوطه وتشينج هى)

شعيب عبد الفتاح
مستشار اعلامى سابق بسفارة مصر فى الرياض

ما يميز العلاقات العربية – الصينية المعاصرة هو ارتكازها على ميراث ثقافي نفيس، أسس لبناء صورة ذهنية ايجابية لدى كل طرف عن الآخر، وساهم في إثراء المسيرة الحضارية بينهما على مر العصور في المجالات كافة، وبما يخدم المصالح المشتركة والتعاون البناء بين هاتين الحضارتين العريقتين .

وفي هذا الاطار سيتم استعراض مساهمة كل من الرحالة المسلم ابن بطوطة إلي بلاد الصين، والرحالة الصيني تشينغ هي، الملقب بالعربية : حجي محمود شمس إلي البلاد العربية ؛ في تعظيم هذا الموروث الثقافي الضخم بين الطرفين، وأثره في توطيد التقارب بينهما في وقتنا المعاصر

اولا ابن بطوطة .. أمير الرحالة :

هو محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بَطُّوطَة (ولد في ٢٤ فبراير ١٣٠٤، وتوفى سنة ١٣٧٧م بمدينة طنجة بالمغرب) هو رحالة عظيم تلقبه جامعة كامبريدج في كتبها بأمير الرحالة المسلمين، خرج من طنجة سنة ١٣٢٦ ميلادية، وهو في سن الثانية والعشرين، في رحلة طويلة حول العالم القديم استمرت حوالي ٢٨ سنة من عمره، قطع خلالها أكثر من ١٢١ألف كيلومتر، وهو رقم لم يحققه أي رحالة منفرد حتى ظهور عصر النقل البخاري بعد ٤٥٠ سنة، وزار ما يُعادل ٤٤ دولةً حديثة، منها بلاد المغرب ومصر والسودان والشام والحجاز وتهامة ونجد والعراق وفارس واليمن وعمان والبحرين وتركستان وما وراء النهر و الهند والصين الجاوة وبلاد التتار وأواسط أفريقيا.

وقد لقي ابن بطوطة الكثير من الثناء من علماء الغرب؛ لمّا قدّمه من وصف لأسفاره، فيقول عنه المستشرق ريجيش بلاشJJير عن كتابه (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) :(لهذا الكتاب أهمية فائقة في الكشف عن معلومات تاريخية دقيقة ومفيدة، لا سيما تلك التي لا تحصى والمتعلقة بعقائد وعادات وأخلاق السكان كما يراها هذا الرحالة المسلم)

ويعتبره المستشرق الروسي كراتشكوفسكي : "آخر جغرافي عالمي من الناحية

العلمية، أي أنه لم يكن نقّالة اعتمد على كتب الغير؛ بل كان رحالة انتظمت أسفاره لعدد كبير من الأقطار، وهو بهذا يُعَدُّ منافسًا لمعاصره الأكبر منه سنًّا (ماركو بولو) الإيطالي (١٢٥٤– ١٣٢٣) م.

رحلته إلى الصين :

لم تكن رحلات ابن بطوطة الي الصين في حسبانه أو تخطيطه المسبق، حيث كان هدفه الوحيد عندما خرج من بلاده هو أداء فريضة الحج بمكة المكرمة، ولكن ما دفعه إليها هو حبه الجارف للاستطلاع والمغامرة، وهذا ما حدث في رحلته للصين، فبعد مكة المكرمة، قرر ابن بطوطة في عام ١٣٣٠م (أو ١٣٣٢) السفر إلى الهند للعمل مع سلطان دلهي المسلم؛ محمد بن توغلوك، والذي طلب منهُ أن يمثله ويذهب كرسول مفوضاً منهُ إلى عائلة يوان في الصين، فقبل ابن بطوطة عرض السلطان بلا تردد خصوصاً أنه سيوفر لهُ فرصة زيارة بلدان جديدة، وبعد صعوبات ومخاطر عديدة استطاع بن بطوطة وجماعته إكمال الطريق إلى كهومبهات في ولاية غوجارات الهندية. ومن هناك أبحروا إلى كاليكوت، و مكث مدة في جنوب الهند تحت حماية السلطان جمال الدين حاكم نوايات وهي سلطنة صغيرة سكانها من المسلمين؛ وتُعرف هذه المنطقة حالياً بهوسباتانا وتتبع مقاطعة أوتار الكانادا .ومع عزيمته القوية في أن يكمل رحلته إلى الصين، قرر أن ينعطف في بداية طريقة نحو جزر المالديف، فقضى تسعة أشهر على أرض الجزيرة وهو الوقت الذي كان أطول مما كان قد قرر، ومن جزر المالديف مضى إلى سريلانكا، وهناك تقطعت بهم السبل على الشاطئ وبدأ العمل على طريق عودته إلى كوريكود ومنها عاد إلى جزر المالديف حيث استقل الجنك الصيني، ولا تزال الرغبة تحدوه في الوصول إلى الصين .

وصل ابن بطوطة بعد ذلك إلى ميناء شيتاغونغ الواقع في المنطقة المعروفة ببنغلاديش حالياً وهو عاقد النية في المضي قدماً نحو سيلهيت، ومنها ذهب شمالاً إلى ولاية أسام، وفي عام ١٣٤٥ سافر ابن بطوطة إلى جزيرة سومطرة، ثم أبحر إلى ملقة، وبعدها إلى فيتنام، ومن ثم جزر الفلبين، وأخيراً إلى مدينة تشي وانتشو في مقاطعة فوجيان بالصين،وقد اثار اعجابه حين وصوله إلى الصين عام ١٣٤٥م إتقان الفنانين المحليين في صنع اللوحات للأجانب القادمين، كما لاحظ أيضاً مدى الاحتراف في صناعة الحرير والخزف، وزراعة الفاكهة كالبطيخ والخوخ و استخدام النقود الورقية، كما قام بوصف عملية تصنيع السفن الكبيرة في مدينة قوانغشتو، وكذلك أشار أيضاً إلى

المأكولات الصينية واستخدام الحيوانات فيها كالضفادع. وبينما كان في قوانغشتو صعد "جبل الناسك"،وعندما وصل ابن بطوطة لمدينة تشيوانتشو الصينية، المعروفة أيضا باسم الزيتون ومن هناك اتجه إلى الشمال حيث مدينة هانغشتو التي وصفها بأنها واحدة من أكبر المدن التي رآها في حياته، حيث أشار إلى سحرها واصفاً إياها بالمدينة التي تجلس على البحيرة الجميلة والمحاطة بالتلال الخضراء، وخلال فترة إقامته في مدينة هانغشتو اثار اعجابه الأعداد الكبيرة من السفن الصينية الخشبية التي صُنعت وزُخرفت بعناية؛ بأشرعتها الحريرية والمظلات الملونة مجتمعةً في القنوات البحرية.

وتعد القيمة العلمية لوصف بن بطوطة للصين من أهم ما تميز به الرحالة الكبير ابن بطوطة في وصفه للصين منذ حوالي ٦٨٠ سنة، أنه اوضح حقائق لأول مرة عن الصين لم تُذْكَر عند غيره، ولاسيما استعمال أوراق النقد في الصين، و استخدام الفحم الحجري، ومن الغرائب أيضا التي ذكرها ابن بطوطة عن نظام التأمين الاجتماعي في الصين؛ أن العامل أو الصانع كان يُعفى من العمل وتنفق عليه الحكومة إذا بلغ الخمسين، وأن من بلغ ستين سنة عَدُّوه كالصبي فلم تُجْر عليه الأحكام .

ويقول الباحث الياباني ياموتو: "إنه من العسير القول بأن جميع حكايات ابن بطوطة عن الصين هي من نسج الخيال وحده"

تشينغ هي :

ولد تشينغ هي ؛ ويسمى بالعربية حجّي محمود شمس عام ١٣٧١ م من أسرة مسلمة، تدعى " ما " من قومية هوي بمقاطعة يونان في جنوب غربي الصين وتوفي سنة ١٤٣٣ ميلادية، تربى في بلاط الأمير تشو دي من أسرة مينغ، أمير (منطقة يان) بكين حالياً، كان بحارا صينيا عظيما ؛ قام برحلات عديدة زار فيها البلدان التي تقع على سواحل المحيط الهندي وجنوب آسيا وأفريقيا ووصل إلى منطقة الخليج والبحر الأحمر ومكة المكرمة وكان ذلك في سبع رحلات بحرية استغرقت ٢٨ عاماً، وقطع فيها أكثر من (٥٠٠٠٠كم)، زار خلالها أكثر من٣٧ دولة .

أسطول تشينغ هي :

عُين " تشينغ هي " قائدا أعلى على أسطول ضخم، قاد بها رحلاته البحرية السبع، ويعتبر أسطوله من أضخم السفن البحرية التي عرفها العالم، حيث كان يتألف من ٦٢ مركبا عملاقا، وطول المركب الواحد ٤٠٠ قدم، وعرضه ١٧٠قدما،وفيه ٩ صواري، ومساحة سطحه الرئيسي٥٠٠٠٠ قدم مربع، حسب تقديرات خبراء الملاحة، وكانت طواقم هذه السفن تضم حوالي ٣٠ ألف بحار وجندي ومئات المسؤولين و١٨٠ طبيبا و

٥ منجمين وعشرات من المهنيين كالحدادين والنجارين والطهاة والخياطين فضلا عن حشود من المترجمين الذين يتقنون العديد من لغات العالم .

ومن ثم تتبلور القيمة العلمية والثقافية لرحلات " تشينغ هي " في الثلاث الرحلات البحرية الأولى، حيث زار " تشينغ هي " جنوب شرق آسيا، الهند، وسيلون التي هي الآن سيريلانكا، أما الرحلة الرابعة اتجهت إلى الخليج العربي وشبه الجزيرة، والرحلات البحرية التي بعدها توجه الي الساحل الأفريقي الشرقي إلى ماليندي التي تعرف الآن باسم كينيا، حيث قام " تشينغ هي " خلال رحلاته بتوزيع الهدايا والعطايا الصينية المكونة من الحرير والخزف وبضائع وسلع أخرى.

وفي المقابل حصل " تشينغ هي" على هدايا من مستضيفيه ومنها الحمير الوحشية الأفريقية والزرافات والتي وضعت في حديقة الحيوانات الإمبراطورية لمينغ، فكان أول من جلب الزرافة من الصومال إلى الصين، ويشير الكثير من الباحثين إلى أن اسطوله جاب أرجاء العالم، بما في ذلك الوصول إلى سواحل أميركا الشمالية قبل مايزيد على ٦٠٠ عام. ويقول البعض إنه تمكن من الوصول الي الولايات المتحدة الاميريكية قبل "اكتشافها" على يد الرحالة الأوروبي كريستوف كولمبوس .

وأخيرا يمكن القول بأن الرحالة الصيني المسلم " تشينغ هي "قد ساهم وبشكل كبير في نقل حضارة شعب الصين إلى الدول العربية فضلاً عن نقل البضائع الصينية المميزة كالحرير الصيني واللؤلؤ والمطرزات الحريرية والقطنية والذهب والفضة، كما ساهم في التعريف بعادات وتقاليد وحضارة الشعب الصيني بشكل موسع في جميع البلاد التي زارها .

مفارقات بين الرحالتين

وأخيرا يتضح مدى التشابه في الدور الحضاري والثقافي الكبير الذي لعبته رحلات ابن بطوطة و" تشينغ هي" في تعزيز الروابط التاريخية بين العرب والصين، حيث يوجد عدد من المفارقات بين كلاهما،منها أن تشينغ هي ولد عام ١٣٧١ م أي قبل وفاة ابن بطوطة بست سنوات حيث توفى عام ١٣٧٧ م، وكأن هناك هدف مشترك لكلا منهما في مواصلة جهود مد الجسور الحضارية والمعرفية بين العرب والصين! هذا بالاضافة أيضا أن رحلة ابن بطوطة ورحلات "تشينغ هي"؛ استغرق كل منهما نفس المدة الزمنية وهي٢٨ عاماً، وفي حين قطع ابن بطوطة خلال رحلته أكثر من ١٢١ألف كيلومتر،وزار ما يُعادل٤٤ دولةً حديثة، نجد أن تشينغ هي زار٣٧ بلد في٧ رحلات بحرية ضخمة بغرض التجارة والدبلوماسية، وقطعت حملاته مسافة تزيد على٥٠,٠٠٠ كيلومتر.